

الأبواب الدفاعية في القاهرة والمهدية في العصر الفاطمي

د. أحمد أمين جمعة الشربتلي*

مقدمة

يرجع نسب الفاطميين إلى الفرع العلوي الذي ينتمي إلى " علي بن أبي طالب " رضى الله عنه ، وقد أكد ياقوت الحموي في كتابه "معجم البلدان" أن نسب الدولة الفاطمية يرجع إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ووسمها بالدولة العبيدية نسبة إلى عبيد الله المهدي^١ ، واتخذ زعيم الفاطميين "عبيد الله المهدي" لقب أمير المؤمنين وجعل عاصمته مدينة القيروان في عام ٢٩٧ هـ - ٨٨٤ م ، ولكنه فكر بعد فترة في ترك القيروان عاصمة الأغالبة وشيد لنفسه عاصمة جديدة في عام ٣٠٣ هـ - ٨٩٠ م عرفت باسم المهدية^٢ .

وعندما ولي "المعز لدين الله" رابع خلفاتهم عرش الخلافة في عام ٣٤١ هـ - ٩٥٣ م تمكن من توسيع رقعة دولتهم في شما أفريقيًا فانتدت من تونس إلى المحيط الأطلسي . وكان "المعز" يطمع في حكم مصر من هذا فرصة الإضطرابات التي حدثت في أواخر عهد الأخشيديين وأرسل جيشًا بقيادة "جوهر الصقلي" لفتح مصر ، فنجح في ذلك بعد أن وصل الفسطاط في عام ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م^٣ .

* رئيس قسم الهندسة المعمارية بأكاديمية الدلتا

* يذكر ابن خلدون في العبر ج ٣ ، ص ٣٦٠ " أن شيعتهم يزعمون أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أوصى علي رضى الله عنه بالخلافة بالنصوص الجليلة وعدل عنها الصحابة إلى غيرهم فوجب البراءة ممن عدل عنهم ثم أوصى علي إلى إبنه الحسن ثم الحسين إلى أخيه الحسين ثم الحسين إلى إبنه زين العابدين ثم زين العابدين إلى إبنه محمد الباقر ثم محمد الباقر إلى إبنه جعفر الصادق ثم جعفر الصادق إلى إبنه إسماعيل الإمام ثم إسماعيل الإمام إلى إبنه محمد ويسمونه المكتوم لأنهم كانوا يكتمون إسمه حذرًا عليه ثم أوصى محمد المكتوم إلى إبنه جعفر المصدق وجعفر المصدق إلى إبنه محمد الحبيب ومحمد الحبيب إلى إبنه عبيد الله المهدي الذي دعا له أبو عبد الله الشيعي .
ويطعن بعض المؤرخين في نسب الفاطميين إلى ميمون بن ديصان القداح الثنوي المذهب القائل بوجود إلهين إله النور وإله الظلمة .

ولكن يبدو أن نسبهم إلى فاطمة الزهراء صحيح (أنظر حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، ط ٣ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ م ، ص ٥٧ - ٧٩

^١ ياقوت الحموي، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٥ م ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

^٢ نعمت اسماعيل علام ، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية ، ط ٥ ، دار المعارف ، بدون سنة طبع ، ص ١٠٧ .

^٣ المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

ولما نجح الفاطميون في غزو مصر نقلوا مركز حكمهم من المهديّة إلى عاصمة جديدة أسسها جوهر في مصر أسماها القاهرة، وأصبحت عاصمة الخلافة الفاطمية، كما شملت الخلافة الفاطمية بلاد المغرب والشام وبلاد اليمن وجزيرة صقلية، كما كانت الحجاز موالية لهم بعض الوقت .

وكان تولى الفاطميين الحكم بمصر وتأسيسهم خلافة مستقلة بها ، هو عودة إلى وضع جغرافي سياسي أنشأته الوقائع وثبتته أحداث التاريخ . فالعالم الإسلامي كان بحاجة دائما إلى مركز متوسط كانت تشغله الإسكندرية في العصر الروماني البيزنطي، ولاشك أن الفاطميين قد انتبهوا لذلك ، كما وجدوا مصر بكثرة مواردها وأرزاقها ومكانتها بالنسبة للعالم الإسلامي⁴ .

كما كان لفتح الفاطميين لمصر أثر كبير في العالم الإسلامي بصفة عامة وفي تاريخ مصر السياسي بصفة خاصة ، وكان أو عمل قام به القائد جوهر بعد فتح مصر هو اختطاط مدينة جديدة، بناء على توجيهات الخليفة المعز، قصد بها أن تكون مدينة ملكية وعاصمة للإمبراطورية العالمية الشاملة التي تضم جميع الأراضي الإسلامية، هي مينة "القاهرة" .

وقد اهتم الفاطميون بتحصين القاهرة، وكان أول هدف لهم من هذا التحصين هو أن تستطيع هذه المدينة مقاومة أي هجوم متوقع من القرامطة على الفاطميين بعد دخولهم مصر، وفي إطار هذا الإهتمام كان إنشاء جوهر للأسوار الأولى لمدينة القاهرة بأسوارها وبواباتها الحصينة .

وقد برزت الحاجة إلى تحصين المدن منذ عهد قديم، عندما نشأت المدن وزاد عمراتها وثراؤها، وبدأت تتعرض لهجمات الأعداء، الذين يطمعون في السيطرة عليها أو نهب ثراؤها، مما أدى إلى بناء الأسوار حول المدن، واتخاذ الجند والقادة الذين يتولون الدفاع عنها⁵. ومن هنا كان اتخاذ الأسوار حول المدينة أمرا مهما.

وفي بداية العصر الإسلامي برزت أهمية الموقع المحصن تحصينا طبيعيا جغرافيا في الدفاع عن المدينة وحمايتها، فالمدينة المنورة محصنة تحصينا طبيعيا من جهاتها المختلفة فيما عدا الناحية الشمالية التي اضطر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يحفر حولها الخندق عندما واجه خطر الهجوم عليها من هذا الإتجاه .

وقد تأثر تخطيط المدينة الإسلامية بإنشاء الأسوار تأثيرا مباشرا وخصوصا فيما يتعلق بمساحتها، وخلق كثير منها من المساحات الفضائية كالميادين المتسعة والحدائق الواسعة، وإنشاء بعض التكوينات المعمارية خارجها، ولا سيما تلك التي

⁴ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط ١٩٩٢، ص ٧٤-٧٥

⁵ بتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة زهير الكرمي - سلسلة عالم المعرفة، الكويت، م ١٩٨٠، ص ١٣٠.

تشغل مساحات كبيرة، كما أن لسور المدينة وأبوابها ارتباطا بشوارعها وضرورة بعد منازلها عنه لتوفير "الفصل" اللازم للدفاع، ولذلك أثره أيضا في الإرتفاع الرأسى لمساكنها، وضيق شوارعها، وامتداد المطلات عليها^٦.

ويقوم المحور الأساسى الذى يحكم بناء الحصون فى العصور القديمة أساسا على تنظيم العراقل بين المهاجمين والمدافعين لمنع المهاجمين من المضى فى سبيلهم، ولوقاية المدافعين من شر مقذوفاتهم، وتمكين المدافعين فى الوقت نفسه من أن يمتروا المهاجمين وابلا من مقذوفاتهم، وبناء على ذلك أقيمت الحصون الأولى التى كانت أولى مراحلها إقامة سور من الردم بارتفاعات مختلفة حول الخندق، أو القناة التى كانت تستعمل الموارد الناتجة من حفرها فى إقامة الحصون، وكانت تعلو هذا كله "مستقيمات حجرية" للاختفاء حولها تسمى "المتاريس" وكانت متقاربة لتمكين المدافعين من الإختباء خلفها وإرسال سهامهم إلى المهاجمين^٧.

وكان لمداخل المدينة أبوابا صفحت مصاريعها بالحديد لمقاومة ضربات العدو إذا ما استطاع الوصول إليها، وهو أسلوب شاع استخدامه فى أبواب المدن الإسلامية، ومن أمثلة ذلك أبواب المهديّة والقاهرة وغيرهما. وكان بين السور الخارجى والسور الداخلى الكبير مساحة خالية تصلح للدفاع عن السور الأخير، وهذه المساحة تسمى "الفصل" ويمكن اصطيد العدو فيها إذا ما استطاع إجتياح السور الخارجى^٨.

وتكشف دراسة أسوار القاهرة الباقية عن تطور عمارة أسوار المدن وتحصينها سواء ناحية تزويد السور بخطين للدفاع فى وقت واحد بعمل خط دفاعى داخل السور بالإضافة إلى الخط الدفاعى أعلاه، أو بتطوير تصميم المزاغل، ودراسة حركة الإتصال بين الجند والقادة ومراعاة إجراءات التزويد والإمداد بصفة مستمرة للحد من طريق عناصر الإتصال المختلفة واستخدام عناصر إنشائية قوية كالتغطية بالأقبية الطولية والمنقطة والقباب الضحلة، واستخدام الروابط الرخامية على إرتفاع معين من أساس السور لتمنع من انهيار السور فى حالة ثقبه من أسفله، وهو أسلوب إستخدم قبل ذلك فى المهديّة^٩.

وقد ذكر المقرئى فى كتابه "الخطط" فى سمك أسوار القاهرة أن عرض جدار السور عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان، كما أنه يوفر الحركة السهلة للجند على سطحه كما أنه من وجهة النظر الإنشائية يساعد على الإرتفاع ببناء الأسوار إرتفاعا يحقق غاية الدفاع ويمنع من سهولة تسلقه، وقياسات السور التى أشار إليها المقرئى

^٦ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٨٨، ص ١٢٢.

^٧ صديق شهاب الدين، تخطيط المدن وتاريخ الحصون، مجلة العمارة، م ١٩٣٩.

^٨ محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص ١٤٢.

^٩ محمد عبد الستار عثمان، نفس المرجع السابق، ص م ١٤٣٤.

تمت فيما يبدو بنفس قياسات سور المهديّة "بتونس" أو مقارنة لها^{١١}، حيث أن معايير الدفاع وأساليب القتال واحدة، باعتبار تقارب الفترة الزمنية بين إنشاء المهديّة والقاهرة، والتي تبلغ بنحو خمسين عاما.

وكانت فكرة تعدد البوابات على التوالي فكرة مهمة في التخطيط الدفاعي هدفها عرقلة العدو الذي ينجح في اقتحام المدخل الخارجي، ويعتبر وجودها في مدينة المهديّة من الأمثلة البمكرة في العمارة الإسلامية الحربية وهي فكرة طورت بصيغ أخرى في العمارة الحربية المغربية والأندلسية في الأبواب ذات المرافق، لكنها جمعت بين الإنكسارات المتعددة والأبواب المتعددة أيضا مع الصعود إلى أعلى .

واستمرت القاهرة حينما بعد قيامها ملكية عسكرية، فلم يكن لقاطني مصر أن يدخلوها وهي مدينة ملكية إلا بعد أن يؤذن لهم، وكان مفوضوا الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويسيرون نحو القصر بين صفين من الجنود. ولكن سرعان ما اتسعت المدينة الناشئة ونمت نموا سريعا وتبوّأت مكانتها المرموقة في ظل الخلفاء الفاطميين، واتصلت مبانيها بمباني مدينة الفسطاط، وصارتا تؤلفان أكبر المدن الإسلامية في العصور الوسطى^{١٢}.

مدينة المهديّة الفاطمية وأبوابها الدفاعية

تقع مدينة المهديّة ويطلق عليها "المدينة ذات الهلالين" على الساحل الشرقي بوسط الجمهورية التونسية، وهي عبارة عن برزخ ممتد داخل البحر "شبه جزيرة" يحيط بها البحر من ثلاث جهات، كما أنها ذات مناخ معتدل تؤثر فيها التيارات الهوائية العرض المتوسط وتبعد عن العاصمة بنحو ٢٠٠ كم . والمهديّة مدينة عريقة جذورها سكة على امتداد التاريخ، ولئن عرفت فترات تاريخية متعاقبة منذ القدم فإن الغموض يكتف تاريخ هذه المدينة قبل العهد الفاطمي رغم الآثار التي وجدت في البحث والخرافات الأثرية برا وبحرا والتي تدل على التواجد الفينيقي أو الروماني^{١٣}.

واضحت الحقبة التاريخية التي ميزت المدينة منذ تأسيس الفاطميين لها وجعلها عاصمة الخلافة الفاطمية سنة ٣٠٨هـ - ٩٢٠م وقد اتخذها الخليفة الأول عبيد الله القاسم عاصمة لموقعها الجغرافي المتميز، فهي تطل على البحر من ثلاث جهات

^{١١} القوي (أحمد بن علي) الموعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت، لبنان، من نسخة طبع، ج ١، ص ٣٦١.

^{١٢} ياقق أحمد عبد الحواد، العمارة الإسلامية فكر وحضارة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧م، ص

^{١٣} علي طبر، مجلة نيا العرب، تونس، عدد ٢٧/٣/٢٠٠٩م.

